٤ — من ذكرياتي في بلاد النوبة :

جغرافية البلاد

للأستاذ عبد الحفيظ أبو السعود

وما كدنا نقيم بالمدرسة ، ونزاول عملنا فيها ، ونتصل بهذه الحياة الجديدة ، ونتعرف إلى الأهلين في هذه البلاد ، ونجوب أنحاءها ، ونشاهد آفاقها — ما كدنا نفعل ذلك ، حتى أدركنا قيمة المعرفة ، ومنزلة الترحال ، والانتقال من مكان إلى مكان ..

لقد شعر كل منا بالتقصير في حق بلاده ، والتفريط في مصلحة وطنه ، لأنه لا يكاد يعرف شيئاً عن هذا الوطن ، الذي تقله أرضه ، وتظله سماؤه ، ويشرق عبير روضاته ، وينعم بثماره وخيراته ...

أدركنا هذا ، وشعرنا به وتمثل لنا حينئذ نشاط الأجانب ، وقيمة الرحلات عندهم ، وأثرها في حياتهم ، وكيف أنهم ارتفعوا بها قدراً ، وعظموا بها منزلة ، وخلدوا بها ذكراً ، وبعدوا شأواً ودفعتهم إلى العمل المنتج ، والسعي الحثيث !.

وهالنا ألا يكون نصيبنا من جغرافية بلادنا سوى معلومات ضئيلة ، لا تنبض بالحياة ، ولا تكاد تنهض على قدمين ، أو تقوم على ساق ، لأنها تنبت في حجرات الدراسة فحسب ، ولا تنال حظها من واقعية الحياة !!

ويقيني أنه واجب على المثقف إذا حل ببلد ، أن يعطيه شيئاً من اهتمامه ، وجانباً من عنايته ، فيدرسه دراسة توقفه على جميع ما يعنيه ، من مختلف نواحيه ، بحيث يجيب إجابة حسنة إذا سئل عنه وخوطب بشأنه ..

وإذا فهم الإنسان البيئة الجديدة التي يحيا فيها ، أمكنه أن ينتج على خير ما يحب ، وأن يؤثر فيها كما يريد ، دون أن تتكاءده عقبة ، أو تقف في سبيله صعوبة ، أية كانت ... ومن الخطأ أن يترك بيئة دون أن يحدث فيها أثراً يذكره به أهلها ، ويحيا به في ذكراهم على الدوام .

لهذا كله ، عنيت بدراسة بلاد النوبة ، ولن يكلفك معرفة جغرافيتها ، أكثر من نظرة فاحصة إلى خريطة الوجه القبلي ، وبخاصة مديرية أسوان ، لتدرك أن الجزء المنزرع شريط ضيق على شاطىء النيل ... بيد أن هذا الشريط يكاد ينعدم تماماً ، ويتلاشى في المسافة ما بين الشلال وحلفا ، وهذا الجزء نفسه هو بلاد النوبة ، إحدى مناطق القطر المصري ، وهي جزء من مديرية أسوان ، غير مطروق .. ولذا فبلاد النوبة قليلة السكان ، لا تحظى بإقبال المصريين ، مثقفين أو غير مثقفين ، ولا بإقبال أهلها أنفسهم على العمل فيها ، والانتفاع منها !!

وحدود هذه المنطقة الشلال شمالا ، وأدندان جنوباً ، وهي آخر الحدود المصرية كما قضت بذلك السياسة الناشئة ، — سياسة الاحتلال المقيت . ومن الشرق والغرب على السواء ، سلاسل جبال تختلف ارتفاعاً وضخامة ، وصحارى منبسطة واسعة ، لا يكاد يقيم فيها الإنسان ، اللهم إلا الجزء الواقع على النيل مباشرة فيضم تجوعاً كثيرة متناثرة على الشاطئين ، وهي مثال الفقر والحاجة ، ورمز البؤس القاتل ، والشقاء الأليم .. وهي مع هذا عنوان التضحية ، والتفاني في حب الوطن ، حيث مسقط الرءوس مهما اشتد البلاء ، وتمادى القدر في الغلواء !!

والمسافة من الشلال إلى وادي حلفا ، حوالي ثلاثمائة وخمسين كيلو متر ، مقسمة إلى أربع وأربعين محطة تقريباً ، تقف الباخرة البطيئة (البوستة) في كل منها ، تحمل البريد ، والبضائع والركاب ، منها وإليها ، ولا تقف الباخرة السريعة إلا مرة واحدة في عنيبة ..

وإذا كان هذا الاسم (بلاد النوبة) يلقي في روع الإنسان حين يسمعه ، أو يقرأ عنه أن سكان هذه البلاد نوبيون جميعاً ، فإن الحقيقة غير هذا ، والواقع يخالفه .. ذلك لأن هذه البلاد تنقسم إلى ثلاث مناطق تختلف كل منها عن الأخرى تمام الاختلاف ، وتباينها إلى حد كبير .

فالمنطقة الأولى من الشلال إلى المضيق ، وهي خمس عشرة محطة : الشلال ، دهميت ، الأمبركاب ، خور رحمة ، أبو هور ، مرواو ، مرية ، قرشة ، جرف حسين ، كشتمنة ، الدكة ، العلاق ، قورته ، السيالة ، المضيق .

وللشلال شهرة بالملاحة ، فأكثر الملاحين الذين يشتغلون في

البواخر النيلية بوجه عام ، تجارية وحكومية ، وشراعية ، من هذه البلاد الصغيرة المسماة بالشلال !!

وإنك لتعجب أشد العجب حينما ترى أبناء هذه البلدة يثبون فى البواخر وثباً ، ويقفزون هنا وهناك ، وكأنما ولدوا على ظهور هذه البواخر ، وعلى صفحات النيل ، وبين موجاته العاتية ، وتياره الجارف ، ومع هذا فلا ينالهم أذى ولا يلحقهم مكروه !!

بيد أن الألم يحز فى نفسك حزاً ، حينما تراهم يرتدون الأسمال البالية ، التى لا تكاد تستر شيئاً من أبدانهم وأجسامهم ! تلك الأجسام الهزيلة الضعيفة ، التى لا تكاد تقوى على الحركة والحياة ، فقد اجتمع عليها الهلكات الثلاث : الفقر والمرض والجهل ... وما أكثر هؤلاء الصبية فى محط الشلال ، حيث القطر الحديدية ، والبواخر النيلية ..

وفى الدكة مشروع للرى ، ولهذا فقد اشتغل كثير من أهلها بالزراعة ، وقد شعرت وزارة المعارف بازدياد حركة التعليم فى هذه البلاد فأنشأت فى الدكة مدرسة ابتدائية ، حتى تقاوم الجهل وتثقف العقول ، وتنير الأذهان والفهوم ..

وكذلك فى كل من العلاق ، والسيالة ، مشروع للرى ، بعث النشاط نسبياً فى أهل هذه البلاد وما جاورها ، وجذبها إلى موطنها الأصلى ، بدل التشرد فى كثير من بلاد القطر ، سعياً وراء الرزق والقوت ، ومزاولة أعمال ومهن ، اشتهرت بهم ، واشتهروا بها ، ولكنها لا تناسبهم الآن ، أو بالأحرى لا يرضى عنها الجيل المتعلم الجديد ، الذى تعلم واكتملت ثقافته ، واتسعت مداركه ...

والمنطقة الثانية من السبوع ، إلى كرسكو ، وهى ست محطات : السبوع ، وادى العرب ، شاترمة ، المالكى ، السنغارى كرسكو ، وليس فى هذه المنطقة مشروعات للرى ، ومع هذا فأهلها يزرعون الساحات القليلة الضئيلة على جانبى النيل ، ويجدون فى هذا مشقة لا تكاد توصف ، ويكفى أن تدرك ، أنهم يجلبون (الطمى) من النيل عند ما ينحسر الماء ، ويضعونه فوق السفح الصخرى إلى حد يكفى لنمو النبات ، ثم يرفعون الماء بالدوالى والنواعير ، ويبذلون فى ذلك جهداً لا يقاس به جهد إنسان والغنى القادر فيهم من يصلح بهذه الطريقة بضعة قراريط !!

بيد أن بلدة المضيق ، خليط من العرب أهل المنطقة الثانية ، ومن النوبيين الشماليين ، أهل المنطقة الأولى ، ولهذا تجد لغتهم خليط من العربية و (الرطانة) النوبية ، وكذلك بلدة كرسكو على هذا الوضع لوقوعها بين المنطقة الثانية ، والمنطقة النوبية ... منطقة أهل الجنوب ..

وأما المنطقة الثالثة فهى أحسن حظاً من هاتين المنطقتين ، وأرغد عيشاً ، وأكثر ثراء وغنى ، وهى أربع عشرة محطة : أبو حمص ، الديوان ، الدر ، توماس ، فتة ، إبريم ، عنيبة ، الجنينة ، مصمص ، توشكى ، أرمنا ، أبو سمبل ، بلانه ، أدندان .

وفى كل من توماس ، وعنيبة ، وبلانة ، مشروع للرى ، إلا أن بلانة أخصب بلاد النوبة ، وأنضرها زراعة ، وأوفرها محصولا ، وأسبقها فى ميدان التقدم الزراعى الذى ينتظر هذه البلاد ، بجانب التقدم الصناعى الذى سيجرفها جرفاً إن شاء الله ، ضمن ما يجرف من بلاد القطر ، الغنية بالمعادن الدفينة ، والثراء المقبور !!

ولكل منطقة من هذه المناطق الثلاث ، اسم خاص بها ، فالمنطقة الأولى منطقة (الكنوز) أو منطقة (نوبيى الشمال) . والمنطقة الثانية منطقة وادى العرب . والثالثة منطقة (نوبيى الجنوب) .

ولكل منطقة من هذه المناطق كذلك عادات وتقاليد خاصة تغاير تمام المغايرة المنطقة الأخرى ، وهذا مما يجب أن يدخل إلى حد كبير فى حساب الباحث ، إذ أن واحداً من الكنوزيين ، أو أهل الشمال ، لو أراد أن يكلم آخر من نوبى الجنوب ، فإن أحدهما لن يفهم شيئاً مما يقول صاحبه ، فلكل لهجة خاصة ، أو ما يسمونه (رطانة) ...

ولن يحاول ساكن المنطقة الثانية — منطقة العرب — أن يفهم من أحدهما شيئاً ، لأنه لا يعرف شيئاً من (الرطانة) وإنما هو يتكلم اللغة العربية التى دخلها قليل من اللحن والتحريف وإن كان يحتفظ باللهجة الجميلة ، ذات الجرس الموسيقى البديع !

غير أن اللغة العربية تجمع بين هؤلاء الإخوة جميعاً ، ولكنها عربية غير سليمة بطبيعة الحال ، وكثير من الصبية والصغار لا يعرفون العربية ، ولا يرضون بالرطانة بديلا ، وكذلك أكثر